

فوز نسوي مبرر

ملكات ووزيرات

بين الماضي والحاضر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ فجر التاريخ استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك وأن تحكم الشعوب ؛ وهي ما زالت تتبوأ الملك وتحكم الشعوب في عصرنا ويقدم لنا التاريخ منذ المصور القابرة نبأ حافلاً من ملكات عظام شغلن عروشاً خطيرة ، وأتميت اليهن مصائر أمم وشعوب عظيمة ، وفن بتدبير الملك وقيادة الجيوش ؛ ففي مصر الفرعونية ، وفي مملكة سبأ ، وفي تدمر ، يتبوأ الملك نساء قويات العزم والشكيلة ؛ وفي مصر أيضاً نرى ملكة رائعة الحسن هي كليوباترا تحاول رد الغزو الروماني عن مصر ، وتفتدى المزعجة بالحياة ؛ ثم نرى في عصر الإسلام ملكة مصرية هي شجرة الدر تنظم شؤون الدفاع عن مصر إزاء الخطر الصليبي ؛ ونرى في القرب ، وفي العصر الحديث ، عدة من الملكات العظيمات يسهرن على مصائر أعظم الأمم الأوربية مثل إيزابيلا ملكة قشتالة ، وماري تيودور والبصابت ملكتا انكلترا ، وكاترين الكبرى امبراطورة روسيا ، وماريا تريزا امبراطورة النمسا وفي أيامنا تتبوأ عرش هولندا أميرة عظيمة هي الملكة ولدينا ؛ بيد أنه من غرائب الاتفاق ومفارقات الحوادث أن المرأة التي وصلت منذ المصور القابرة إلى تبوء العروش وقيادة الدول ما زالت تناضل في عصرنا للحصول على أبسط الحقوق العامة التي يتمتع بها الرجل ، فإنا ظفرت ببعض هذه الحقوق في بلد من البلاد اعتبر ذلك فوزاً عظيماً لفضيلتها

وقد وقع أخيراً في فرنسا حادث يعتبر فوزاً عظيماً للحركة النسوية ؛ ففي الوزارة الفرنسية الجديدة التي رأسها زعيم الاشتراكية الفرنسية ، ميو ليون بلوم ثلاث نساء يشغلن مراكز الوزارة ، وهن مدام سيسيل برونشفيج لإحدى زعميات الحركة النسوية الفرنسية ، ومامد ايرين كوروي السالمة الكيميائية

ونجرت في الوراثة الحرية ؛ وبصر بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرض لمروفة وأفضى إليه بهمة وشكا ما نزل به ثم قال : وإنى قد أمّلتك وظنى بك أن تصطفيني لنادمتك أو تلحقني بخدمتك ، وما أريد إلا الكفان من العيش ، فإن لم تبلغ بي فالليل الذي يمش به القليل . وصمد فيه الشاب وصوب ثم قال له : أتحسن أن تلطف في حاجتي ؟ قال : سأبلغ في حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقة في هذا ؟ أكنت قوآداً ؟ أنعرف كثيرات منهن . . . ؟

فانتفض غضباً وهم أن يسطن بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرة ويطردونه مرة ، إذ وقعت به ظنة التلصص ، وكادوا يسلطونه إلى الشرطي ففضى هارباً وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وامارته وبؤسه جيماً

قالوا : ومر في طريقه إلى مصرعه بامرأة تبيع الفجل والبصل والكرات وهي بادة وضئمة ممثلة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مسحة إغماء ، فذكر غزله وفتنته واستفواؤه للنساء ، ونازعه النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً ، وظنها لا تمجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خراج ولاج منذ نشأ ، غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدته بلطمة أظلم لها الجو في عينيه ، ثم هربت في وجهه هرباً منكراً واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذوا الصنع بما قدم وماحدث ، ومازالوا يتماورونه حتى وقع مغشياً عليه

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب فحُرب وحُبس واجتلى بالجنون وأرسل إلى المارستان وساح في مصائب العالم وطاف على نكبات الأمراء والدُّوقة بما يمي وما لا يمي ، ثم رأى أنه قد أفاق من الاغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه

وباليت من يدري بمد هذا ؛ أغدا ابن الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يحسن إليهم ، أم غدا على صاحبه التي امتنعت عليه فاتباع لها الحلية بعشرة آلاف دينار ؟

يا ليت من يدري ؛ فإن الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبر عند ما انقطع الصنع

عن محمد فرح

(غلطا)

ضرباً من المستحيل

ولكن المرأة ما زالت ترد بعنف عن حظيرة التشريع والسياسة العليا ، وعن مواطن المسؤولية العامة ؛ وإذا كانت قد استطاعت أن تفوز في بعض الأمم بحقوق الانتخاب والنيابة ، وأن تحتل بعض الوظائف الكبيرة ، فإنها ما زالت بعيدة جداً عن التأثير في سير السياسة العليا ، وسير التشريع القوي ؛ وما زال الرجل يستأثر وحده بتوجيه السياسة والتشريع بعيداً عن تدخل المرأة أو إشرافها . وقد غمض أجيال أخرى قبل أن نستطيع المرأة أن تفوز هذا الميدان غزواً حقيقياً ، أو أن تساهم فيه مساهمة تذكر

وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ؛ فقد أتيح للمرأة ، في كثير من العصور أن تتبوأ الملك وأن تقود الأمم ، وأن تستأثر بتوجيه السياسة العليا ، ولكنها تحرم في عصرنا ، رغم عصر بقدمها وظفرها ، من تبوؤ مناصب الحكم والمسؤولية . وبعبارة أخرى ، فقد سبق فوز المرأة باللوكية ، فوزها بالوزارة أو ما يعادلها ؛ بيد أنه ليس من الصعب أن نفسر هذه الظاهرة التاريخية ؛ ذلك أن فوز المرأة باللوكية لم يكن راجعاً في عصر من العصور إلى مواهب ومزايا خاصة تؤهلها للاضطلاع بهذا المنصب الخطير ، ولكنه كان يرجع دائماً إلى حقوق الأسرة وتطورات الحوادث ؛ وقد كانت حقوق الأسرة في الملك تتشعب في العصور القديمة والوسطى بنوع من الحق الإلهي ، وفي ظل هذا الحق الزعوم الذي كانت تقدسه الشعوب في تلك العصور استطاعت المرأة أن تتبوأ الملك بالوراثة والتعيين لا بالأهلية والاستحقاق

وإذا كان من الانصاف أن نقول إن المرأة استطاعت في ظل اللوكية أن تقوم أحياناً بمهام الملك والسياسة بقوة وبراعة ، فإنه يجب ألا ننسى أن وجودها في هذا المركز لم يكن عنوان فوزها الاجتماعي ، ولم يكن نهاية في تطور النضال بينها وبين الرجل ، وإنه لم يكن أكثر من ظاهرة تاريخية عرضية كما يتنا

على أن المرأة لم تقف في توجيه المروش والسياسة عند هذا الوطن الذي ارتفعت إليه في ظل الأسرة والحق الإلهي ، بل استطاعت في ظروف كثيرة أن تصل بقوة غريزتها ونفوذها إلى التأثير المباشر في توجيه الدول والحكومات ؛ ويقدم لنا التاريخ

الشهيرة ، ومدام سوزان لاكور الكاتبة الاشتراكية التي اشتهرت بمجهودها في سبيل حماية الطفولة

وهذه أول مرة في تاريخ فرنسا تتبوأ فيها المرأة كرسي الوزارة ؛ ويزيد الحادث غرابة وطرافة أن أولئك النسوة الوزيرات لازلن كباقي نساء فرنسا ، محرومات بنص الدستور من محاولة أبسط الحقوق العامة ، أعنى حق الانتخاب ، وهو حق يجاهد المرأة الفرنسية للحصول عليه بكل ما وسعت ، وتأباه عليها الحكومات والبرلمانات المتعاقبة

ولقد تخلفت فرنسا في هذا الميدان عن باقي الأمم الديمقراطية العظيمة مثل انكلترا وأمريكا وروسيا حيث تتبوأ المرأة مناصب الحكم ومقاعد النيابة منذ أعوام بعيدة ؛ وفي البرلمان الانكليزي اليوم عدد كبير من النسوة النائبات ، وفي الوزارة الانكليزية القائمة سيدة هي مس بوفيلد وزيرة العمل ؛ وفي أمريكا تشغل المرأة مناصب الحكم في كثير من الولايات ، وتحتل عدداً كبيراً من المقاعد النيابية ؛ وفي روسيا السوفيتية تتمتع المرأة بجميع الحقوق السياسية والعامة التي يتمتع بها الرجل ، وتشغل كثيراً من مراكز الحكم والنيابة في سائر الإدارات والمجالس السوفيتية ، وأحياناً تشغل منصب السفارة ، مثل السيدة الكسندرا كوللاتاي ، التي لبثت مدى حين سفيرة للروسيا في المكسيك ثم في السويد ؛ بل نرى المرأة تفوز في بعض الأمم الفتية بحق الانتخاب والنيابة ، كما حدث أخيراً في تركيا

كانت الحرب الكبرى ميداناً عظيماً لمجهود المرأة ، ففيها استطاعت لأول مرة أن تضطلع بكثير من المهام والأعمال الشاقة ، وفيها لقيت الحركة النسوية المعاصرة فرصة عظيمة لنشاطها وظفرها ؛ ومنذ غداة الحرب استطاعت المرأة أن تحقق كثيراً من أمانتها ومطالبها ، ففرت جميع ميادين الحياة العامة ، وففتت إلى مترك الوظائف والمهن الحرة ، وفتحت لها أبواب التعليم الجامعي بسائر أنواعه ، ولم تعد تقتصر على محاولة المهن السلبية الهادئة كالطب والحماة والصحافة ؛ بل غدت تنافس الرجل في أشق الأعمال وأخطرها ، كالمهندسة والطيران وبعض الأعمال العسكرية والبحرية ، وغيرها مما كان اضطلاعها به يعتبر من قبل

والحركات الحرة ؛ وكان البارونة فون كريدنر في الحث على عقدها أعظم أثر ، كما أنها لبثت مدى حين توجه سياسة القيصر طبق آرائها ونصائحها

فهذه الأمثلة التاريخية المديدة توضح لنا إلى أي مدى استطاعت المرأة أن تغزو مواطن التأثير والنفوذ في الشؤون العامة بطرق ووسائل غير مباشرة ؛ بيد أن هذا الفوز الذي يرجع دائماً إلى عوامل وظروف عرضية ، لم يكن ثمرة نضال أو تطور طبيعي ؛ أما اليوم فإن المرأة تسير في ميدان النضال بخطوات حثيثة ، وتحقق لنفسها بوسائلها وجهودها ظفراً بعد ظفر ؛ وإذا كانت المرأة تتبوأ اليوم كراسي النيابة والوزارة ، فذلك لأنها استطاعت أن تشق طريقها إلى تلك المناصب ، وأن تدلل على أهليتها لتوليها ، فهي إذن تسير في طريق طبيعي لا أثر فيه للطرفة أو العوامل العارضة التي رفعتها من قبل إلى مواطن نفوذ لم تكن تحمل بها ولا ريب أن المرأة لن تقف عند هذا الفوز اليسير الذي يكاد يعتبر فوزاً رضياً فقط ؛ ومن المحقق أنها ستمتد بهذا الفوز على ضآله فتضاعف جهودها ؛ وإذا سارت الحوادث في طريقها ، وإذا لم تمعها العوامل والمؤثرات الرجعية ، فإن المرأة ستصل في المستقبل القريب في تحقيق أمانها إلى مدى يصعب اليوم ادراكه وتقديره ، وإن لم يك ثمة شك في أنه سيكون عظيماً بعيد الأثر

محمد عبد الله هانم

أمثلة طريفة جمة من هذا النوع البارع من النساء . ولم يخل التاريخ الاسلامي نفسه من أمثلة من هذا النوع ؛ ففي تاريخ الأندلس نجد امرأة نصرانية بارعة هي صبح النافارية جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد ، تسيطر بنفوذها على الحكم وعلى حكومة قرطبة زهاء عشرة أعوام ، وتؤثر في سياسة القصر والدولة ؛ فإذا توفي الحكم تراها تستأثر مدى حين بالوصاية على ولدها المؤيد وتوجه ناصية الشؤون ببراعة ودهاء حتى يسطع نجم النصور بن أبي عامر (الحاجب النصور) فيسلبها كل سلطة وكل نفوذ . وفي دولة بني عباد ياشبيلية ، ترى جارية أخرى هي اعتماد الريمكية جارية العتد بن عباد وأم أولاده تسيطر على حكومة اشبيلية مدى حين . وفي أواخر دولة الاسلام بالأندلس نجد امرأة نصرانية هي ثريا زوجة السلطان أبي الحسن النصري ملك غرناطة توجه شؤون الدولة طبق أهوائها وتثير بمساعيها ضرام الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط غرناطة في أيدي النصارى . ويقدم الينا التاريخ الأوربي نماذج عديدة مدعته من نساء يسيطرن على الدولة بطرق غير مباشرة ، وتكتفي بأن تقدم من ذلك مثلين بارزين : أولهما مثل المركيزة دي بوبادور صاحبة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ، وقد حلت في البلاط مكان الملكة الحقيقية ، وسيطرت مدى أعوام طويلة بنفوذها على شؤون القصر والدولة ، تولى وتمزل ، وتأمر وتنهى ، وتؤثر في توجيه سياسة فرنسا الخارجية أعظم تأثير ، وتقبض على مقاليد السلام والحرب . والثاني هو مثل البارونة فون كريدنر ، وهي سيدة روسية غادرت حياة زوجية نكدية لتمتحن حياة الزهد والتصوف ، وقصت علينا حياتها الأولى في كتاب عنوانه « فاليري » ، وطافت أرجاء ألمانيا وسويسرا وهي تمحض على الزهد واحتقار متاع هذه الحياة الدنيا ، ثم ألقت بها المقادير إلى بلاط القيصر اسكندر الأول ، فأثرت في نفسه تأثيراً عظيماً واستولت على مشاعره وتفكيره ؛ وكان يقضى معها كل يوم ساعات عديدة في الصلاة والشورى ؛ وقد ظهر تأثير هذه المرأة القوية في عقد « الماهدة المقدسة » الشهيرة ، التي عقدها القيصر مع النمسا وبروسيا (سنة ١٨١٥) وغرضها الظاهر تنظيم الملائق الدولية طبقاً للبادئ المسيحية ، وترويج المحبة الأخوية بين الشعوب ، وغرضها الحقيقي مقاومة النزعات

